

## الشعر والقومية الإسلامية

استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يؤسس دولة بمصر بعد أن قطع الخطبة عن الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ. واستطاع أن يضم إلى دولته قسما كبيرا من بلاد الشرق الأوسط عملا بالسياسة التي أخذها عن نور الدين زنكى، وهى السياسة التى ترمى إلى توحيد هذه البقعة من البلاد الإسلامية حتى يستطيع أن يواجه الإمارات الصليبية التى احتلت قواتها معظم ساحل الشام وبعض المدن الهامة وخاصة بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى، رأى نور الدين زنكى وصلاح الدين من بعده أن المسلمين كانوا متفرقين بين إمارات صغيرة ضعيفة فيكيد بعضها للبعض الآخر، ويستعين أمير من أمرائها بالصليبيين على أمير آخر، مما أضعف حال المسلمين ضعفا شديدا الأمر الذى ترتب عليه أن أصبح للصليبيين مكانة فى البلاد ليس من السهل مقاومتها، وازداد طمع الصليبيين فى البلاد الإسلامية حتى إنهم طمعوا فى محو الإسلام والمسلمين من العالم.

أدرك صلاح الدين ببعده نظره وكياسته أن خير وسيلة لعلاج حالة المسلمين أن يوحد بينهم ويجمع كلمتهم ويلم شعثهم حتى يستطيع أن يواجه الصليبيين بقوى موحدة كاملة، وكان صلاح الدين يذكر الآية القرآنية الكريمة «والأعراب أشد كفرا ونفاقا» وكان يعلم أن عددا كبيرا من الأعراب المنافقين يساعدون الأعداء فى سبيل دراهم معدودة، وباعوا أوطانهم وإخوانهم فى الإسلام لقاء منفعة عاجلة، فأراد أن يأمن شر هؤلاء الأعراب الذين دمغهم الله تعالى بالكفر والنفاق، لهذا كله بدأ صلاح الدين حروبه مع الإمارات الإسلامية ومع هؤلاء الأعراب المنافقين، حتى إذا أتم له إخضاعهم لسلطانه وولى عليهم بعض أفراد أسرته، قصد بجموعهم المتحدة إلى الإمارات الصليبية واستطاع أن ينتزع بعضها إلى أن استعاد بيت المقدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ، ومما لاشك فيه أن هذه الحروب التى خاضها صلاح الدين ولا سيما حروبه مع الصليبيين، قد ألهبت حماسة المسلمين فى جميع الأقطار، وأيقظت شعورهم بعد رقدته عدة قرون، وأوجدت بينهم ما نستطيع أن نطلق عليه الاصطلاح الحديث «الشعور بالقومية الإسلامية» فبالرغم من أن القومية والشعور بها أثر من آثار الثورة الفرنسية فى العصر الحديث فإن المسلمين فى القرون الوسطى شعروا بهذا الشعور ونادوا به إبان حروب صلاح الدين، وكان الأدب

– شعرا ونثرا– هو اللسان المعبر عن هذا الشعور، وإذا تصفحنا كتب التاريخ أو دواوين الشعراء يروعننا أن نجد هذا العدد الكبير من القصائد التي قيلت في هذا الفن الذي أعده جديدا على موضوعات الشعر العربي، وهو فن الشعور بالقومية الإسلامية، واشترك في هذا الفن عدد كبير من الشعراء في مختلف البلاد الإسلامية حتى هؤلاء الذين لم يتصلوا بصلاح الدين أو بأحد أفراد أسرته إنما دفعهم إلى ذلك الشعور بالقومية الإسلامية أو الوحدة الإسلامية، ومحيت فكرة الشعوبية التي تفضل العرب على الأعاجم، وحل محلها فكرة «نصرة الإسلام» وعزة الإسلام، وأن المسلمين أخوة لا فرق بين عربي وأعجمي، وأن الله تعالى ينصر كل من يعمل على انتصار المسلمين عند الكافرين، هذه هي المعاني السامية الجليلة التي أكثر منها الشعراء وهم ينشدون في مدح صلاح الدين، فهأهو ابن سناء الملك يقول في إحدى قصائده يهنئه بفتح حلب.

وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب  
 من أرض مصر وصارت مصر من حلب  
 بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب  
 إلى العزائم مدلول على الغلب  
 والأرض بالخلق والأفلاك بالشهب  
 مبيضة النصر من مصفرة العذب  
 معصومة بتعاليتها عن الرتب  
 كلا ولا واصلتها نوبة النوب  
 ولو رامها بقوس الأفق لم يصب  
 خارت قوائمه عنها ولم يثب  
 وطالما غاب عنها وهي لم تغب  
 كواكب الدلو في بئر من السحب  
 إلا العواصم تبغى السحب في صيب  
 ياطالب النجم قد أوغلت في الطلب  
 لصير الرأس منه موضع الذنب  
 والبيض كالموج والبيضات كالحب

بدولة الترك عزت ملة العرب  
 وفي زمان ابن أيوب غدت حلب  
 ولابن أيوب دانت كل مملكة  
 مظفر النصر منعوت بهمته  
 والدهر بالقدر المحتوم يخدمه  
 ويجتلى الخلق من راياته أبدا  
 إن العواصم كانت أي عاصمة  
 ما دار قط عليها دور دائرة  
 لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته  
 ولو أتى أسد الأبراج منتصرا  
 جلية النجم في أعلى منازلها  
 تلقى إذا عطشت والبرق أرشية  
 كل القلاع تروم السحب في سعد  
 حتى أتى من منال النجم مطلبه  
 من لو أبى الفلك الدوار طاعته  
 أتى إليها يقود البحر ملتظما.

تبدو الفوارس منه فى سوابقها  
مستلئمين ولولا أنهم حفظوا  
جمالهم من مغازيهم إذا قفلوا  
فطاف منها بركن لا يقبله  
وحل من حولها الأقصى على فلك  
ومانعته كعمشوق تمنعه  
فمر عنها بلا غيظ ولا حنق  
تطوى البلاد وأهليها كتائبه  
وافى الفرات فألقى فيه ذا لجب  
رمت به الجرد فى التيار أنفها  
لم ترض بالسفن أن تغدو حواملها  
وكان علمها قطع الفرات به  
وجاوزته وألقى من فواقعه  
إلى بلاد أجابت قبل أن دعيت  
لو لم تجب يوسف من قبل دعوته  
خافت وخاف وفر المالكون بها  
ثم استجابت فلا حصن بممتنع  
وأصبحوا منه فى هم وصحبهم  
تفرغوا لنعيم العيش واشتغلوا  
أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها  
ممالك لم يدبرها مدبرها  
حتى أتاه صلاح الدين فانصلحت  
واستعمل الجد فيها غير مكترث  
وقد حواها وأعطى بعضها هبة  
يعطى الذى أخذت منه ممالكه  
ويمنح المدن فى الجدوى لسائله  
ومن رأت صده عن ربعها حلب

بين النقيضين من ماء ومن لهب  
عوائد الحرب لاستغنوا عن البلب  
حمالة السبى لا حمالة الحطب  
إلا أسنة أطراف القنا السلب  
ودار من برجها الأعلى على قطب  
أحلى من الشهد أو أحلى من الضرب  
وسار عنها بلا حقد ولا غضب  
طيا كما طوت الكتاب للكتب  
يظل يهزأ من تياره اللجب  
فعومها فيه كالتقريب والخبب  
فعزها ليس يرضى ذلة الخشب  
تعلم العوم فى بحر الدم السرب  
درا يرضع فوق العرف واللبب  
للخاطبين ولولا الخوف لم تجب  
لعاد عامرها كالجوسق الخرب  
فالمدن فى رهب والقوم فى هرب  
منها عليه ولا ملك بمحتجب  
وهم سكارى بكأس اللهو والطرب  
عن الثغور بلثم الثغر والشنب  
بمالك فظن أو سائس درب  
إلا برأى خصى أو بعقل صبي  
من الفساد كما صحت من الوصب  
بالجد حتى كأن الجد كاللعب  
فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب  
وقد يمن على المسلوب بالسلب  
كما ترفع فى الجدوى عن الذهب  
ووصله لبلاد حلوة الحلب

غارت عليه ومدت كف مفتقر  
واستعطفته فوافقتها عطفه  
وحل منها بأفق غير منخفض  
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه  
ومعجز كم أنا من مشبهة  
تهن بالفتح يا أولى الأنام به  
وافخر ففتحك ذا فخر لمفتخر  
بك العواصم طابت بعدما خبثت  
فليت كل صباح ذر شاقه  
إنى أحب بلاد أنت ساكنها  
إلا لأنك قد أصبحت مالكا  
فجرد كفك زخرى فى يدى ويدي  
ألهى مديحك شعري عن تغزله  
فلم أقل فيه لا أن الصباة لى

منها إليه وأبدت وجه مكتئب  
وأكتب الصلح إذ نادته عن كتب  
للصاعدين وبرج غير منقلب  
ملك الملوك ومولاها بلا كذب  
فصار لا عجا من فضله العجب  
فالفتح إرثك عن أبائك النجب  
زخر لمدخر كسب لمكتسب  
بمالكيها ولولا أنت لم تطب  
فداء ليل فتى الفتيان فى حلب  
وساكنيها وليسوا من ذوى نسبي  
دون الأنام وهل حب بلا سبب  
وحب بيتك إرثى عن أبى فأبى  
فجاء مقتضبا فى إثر مقتضب  
يوم الرحيل ولا أن المليحة بي<sup>(١)</sup>

فالشاعر بدأ قصيدته بأن الأتراك الأعاجم الذين منهم صلاح الدين انتصروا ملّة العرب  
أى للإسلام وأن الإسلام انتصر بفضل صلاح الدين، وبفضل هذا الانتصار أصبحت وحدة  
مصر مع الشام وحدة حقيقية إذ صارت حلب جزءا من مصر، وأصبحت مصر جزءا من  
حلب وهذان البيتان فى مطلع القصيدة يدلان على ما كان يرمى إليه صلاح الدين من توحيد  
البلاد الإسلامية حتى يستطيع أن يلقى بالبلاد المتحدة قوى الأجانب المستعمرين الذين  
طمعوا فى البلاد الإسلامية لتفريق المسلمين، ثم يمضى الشاعر فى وصف جيش صلاح الدين  
وقوة هذا الجيش وتأييد الله له.

أما الشاعر ابن النحاس المصرى يحيى بن علم الملك فهو يمدح صلاح الدين بصورة  
أخرى فهو يقول:

ويا معيد حياة الفرض والسنن  
ومنقذ الدين والدنيا من الفتنة

يا مالك المصر والشامين واليمن  
وناصر الحق إذ عزت خاواذله

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٩ وما بعدها نشر الدكتور عبد الحق طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر

أباد بالهند.

نجوم سعدك والتوفيق فى قرن  
وجدت المال والأرزاق والمنن  
أصبحت إلا محل الروح فى البدن  
وينثنى عنك إلا عابد الوثن  
يشكو إليك الأذى من عبدك الزمن  
بسطتها لتقى الدين بالمنن  
إليك مفتقرا عن جودك الهتن  
وحسن سيرته فى السر والعلن  
أتى من اليمن والبشرى من اليمن  
سرى السرور إلى الأفهام والفظن  
العبيد حتى غدت من جملة المؤمن  
تخويل خادمه ملك ابن ذى يزن  
بالنصر ما غرد العمرى فى فتن<sup>(١)</sup>

يا يوسف الحسن والإحسان لا برحت  
جاد الملوك بمال بعد منهم  
لقد بعثت لإصلاح الوجود فما  
وما يداجيك إلا كافر أشر  
بباب عدلك مظلوم القوى زمن  
وإن تلافته من بعد التلاف يد  
فلا عناء له إذ كان صاحبه  
مجرب فى الوفا مملوك دولتكم  
هنئت بالفطر والفتح المبين وما  
مقدم الملك المولى المعظم قد  
علمت قومك وتفريق الممالك فى  
فقد أتاك ومن أدنى سماحته  
لازلت فى ذروة العلياء منفردا

فابن النحاس المصرى يمدحه بأنه ملك أكثر البلاد العربية وأنه أحيا بها الدين الإسلامى الصحيح بفرائضه وسننه وأنه أنقذ الدين والدنيا من الفتن، ولكن الشاعر بالغ فى مدحه فذهب إلى أن صلاح الدين «بُعث لإصلاح الوجود» وأنه حل فى البلاد «محل الروح بالبدن» فكانه جعل من صلاح الدين نبيا بعث لإصلاح الوجود، ولا أكاد أعرف شاعرا من الشعراء مدح ملكا من الملوك بمثل هذه المبالغة التى ذهب إليها شاعر مسلم فى مدح ملك عمل لنصرة الإسلام، ومع أن الشاعر جعل صلاح الدين نبيا بُعث، فإنى لم أعرف أحدا من رجال عصره أخذ عليه هذه المبالغة، بل يذهب الشاعر إلى أن جاحد بعثته كافر والمزور عنه عابد للوثن وهى كلها من لون المبالغة التى جرى عليها شعراء أواخر العصر الفاطمى ونهج نهجهم شعراء المدح فى الدولة الأيوبية، ولا سيما الشعراء الذين ذهب المؤرخون إلى تسميتهم بمدرسة القاضى الفاضل، فأخص ما تختص به هذه المدرسة هذه المبالغة الشديدة التى قد تذهب إلى حد المستحيل - على نحو ما سنذكره فى حديثنا عن القاضى الفاضل ومدرسته - وكانت هذه المبالغة محببة، وشاد بها النقاد ولاسيما الذين جاءوا بعد هذا العصر، فابن النحاس المصرى ذهب هذا المذهب فى مدح صلاح الدين.

(١) العماد الأصفهاني خريدة القصر ج ٢ ص ١٢٢.

ومن قصيدة الأسعد بن ممتى فى مدح صلاح الدين يقول:

يا كريم الخيم فى الخيم  
عجبنى للشمس إذ طلعت  
كيف لا تصمى لواظفه  
لا تصد قلب المحب لكم  
يا صلاح الدين يا ملكا  
أضحت الكفار فى نقم  
فالشاعر يشير إلى ما يعانىة الكفار من نقمة صلاح الدين، وما يرتع فيه المسلمون من نعيم.

وقال الشاعر أبو الفضل جعفر بن الفضل المعروف بشلعلع فى مدح صلاح الدين أيضا:

عداك إلى أعدائك الذل والقهر  
ودمت صلاح الدين للدين مصلحا  
وأبقاك للإسلام من شاء كونه  
مفيضا على الملك الأغر ملابسا  
فالشاعر يدعو لصلاح الدين بالدوام لصالح الدين الإسلامى، فالفكرة هى فكرة علو شأن الإسلام والمسلمين قبل كل شىء ومثل هذا يقول الشاعر أبو الحسن بن الذروي:  
شرحتم لمنن الدين بالسمر والظبا  
وما كاد جيش الروم يبرم كيده  
حميت ثغور المسلمين فأصبحت  
أسرت ملوك الكفر حتى تركته  
من المجد معنى كان من قبل يغمض  
إلى أن سرت منك المهابة تنقض  
ثغورا بأمواه الحديد تمضمض  
وما فيه عرق عن قوى النفس ينيض<sup>(١)</sup>  
وهكذا يستمر الشعراء فى الإشادة بما أداه صلاح الدين إلى الدين الإسلامى، ثم انظر إلى ما قاله الشعراء فى فتح القدس إذ أظهر الشعراء فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فرحهم

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٧٠.

(٢) العماد: الخريدة ج ٢ ص ١٢٥.

(٣) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ٨٢.

بانتصار المسلمين على الصليبيين ، فشعورهم بهذا الفرح دليل على هذه الوحدة الإسلامية التي كان يعمل لها صلاح الدين فمن ذلك قول نجم الدين يوسف بن المجاور:

الوقت أضيق من سماع قصيدة  
الجد في هذا الزمان مبين  
بالناصر المهدي والهادي إلى  
شدت قوى أركان ملة أحمد  
مولى غدا للدين أكرم والد  
قد أنصف التوحيد من تثليثهم  
ملك له في الحرب بحر تفقه  
وعليه أنزل في الجهاد مفصل  
أحييت دين محمد وأقمته  
جاءت جنود الله تطلب ثأرها  
فانهض بها وتقاض حقاك موقنا  
هم فتية الأتراك كل مجفجف  
قوم يخوضون الحمام شجاعة  
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا

فالشاعر في هذه المقطوعة يكرر نفس الفكرة التي غمرت المسلمين في هذا العصر وهي فكرة نصر الإسلام وإعلاء شأنه بعد أن ضعف بسبب تفرق المسلمين، وتذهب به المبالغة إلى أنه أنزل عليه القرآن في الجهاد وأن المدوح يقرأ هذا الكتاب المنزل بسبعة أحرف ثم أشاد إلى جنود صلاح الدين من الأتراك الذين اختارهم لهذا الجهاد في سبيل الله.

ثم اقرأ قصيدة الشريف الجواني محمد بن أسعد النسابة المصري:

أترى مناما ما بعينى أبصر  
وقمامة قمت من الرجس الذى  
ومليكمهم فى القيد مصفود ولم  
قد جاء نصر الله والفتح الذى  
القدس يفتح والفرنجة تكسر  
بزواله وزوالها يتطير  
ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر  
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٤.

هو فى القيامة لأنام المحشر  
ماذا يقال له وماذا يذكر  
فاروقها عمر الإمام الأطهر  
ولأنت فى نصر النبوة حيدر  
يختال والدنيا به تتبختر  
فالرمح ينظم والمهند ينثر  
ن خواشع حيث الجباه تعفر  
فيها السيوف فكل هام منبر  
تحذى نعالا أو دماء تهدر  
فيصدها عنه طلى وسنور  
عرج بها لكنها تتعثر<sup>(١)</sup>

فتح الشآم وطهر القدس الذى  
من كان هذا فتحه لمحمد  
يا يوسف الصديق أنت لفتحها  
ولأنت عثمان الشريعة بعده  
ملك غدا الإسلام من عجب به  
نثر ونظم طعنه وضرايه  
حيث الرقاب خواضع حيث العيو  
غاراته جمع فإن خطبت له  
إذ لا ترى إلا طلى بسنابك  
وصوافنا تختار أن تطأ الثرى  
تمشى على جثث العدا عرجا ولا

فالشاعر هنا يرى أن حقيقة فتح القدس وانتزاعه من أيدي الصليبيين حلم من الأحلام  
وأن كنيسة القيامة سيزال عنها الرجس وأن ملك الصليبيين قد أخذ أسيرا وقيد بالأصفاد  
بعد أن كان الشعور السائد بين المسلمين أن ملوك الصليبيين على قسط كبير من الشجاعة  
فلم يقع أحدهم فى الأسر من قبل، وأن هذا النصر الذى أحرزه المسلمون هو «نصر الله  
والفتح» الذى وعد به الرسول صلوات الله عليه، ومن الطريف أن يعرض الشاعر لهذه  
القصة الشعبية التى تقول: إن القدس هو المكان الذى سيحشر فيه الناس يوم القيامة،  
ثم شاء الشاعر أن يصف صلاح الدين الذى تمت على يديه هذه الفتوحات فهو «يوسف  
الصديق» وهو «عمر بن الخطاب» وهو «عثمان بن عفان» وهو «على بن أبى طالب» أى أنه  
جمع صفات الخلفاء الراشدين الذين على يديهم امتدت الفتوحات الإسلامية وحافظوا على  
الأمانة التى حملوها فى العمل بالكتاب والسنة، ثم أخذ فى وصف طعناته فى الأعداء  
ووصف جيشه، ولكن الصورة التى تعجبني حقا هى أنه جعل «الرمح ينظم والمهند ينثر»  
فهذه الاستعارة أن الرمح ينظم القتلى كما ينظم الشاعر قصيدته، والمهند ينثر الدماء كما  
ينثر الكاتب كتابته تدل على خيال خالق يؤلف بين الصور المختلفة، ويظهر فنه فى مثل  
هذا البيت، ويخيل إلى أن هذه الصورة جديدة لم يسبق إليها.

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٥.

واقراً للشاعر فخر الكتاب أبي على الحسن بن على الجوينى قصيدته التى أرسلها من مصر بعد فتح القدس يقول:

من شك فيهم فهذا الفتح برهان  
وقد مضت قبل أزمان وأزمان  
له سوى الشكر بالأفعال أثمان  
صيда وما ضعفوا يوماً وما هانوا  
خوف الفرنجة ولدان ونسوان  
فحام عنها وصمت منه آذان  
لام يَطوى ويحوى وهو سكران  
لام أنصاره صم وعميان  
بأمر من هو للمعوان معوان  
سمت لهم هم الأملاك مذ كانوا  
مال الناس داود هذا أم سليمان  
فطهرت منه أقطار وبلدان  
بل أين والدهم بل أين مروان  
ييدهم من ملوك الأرض إنسان  
تنزلت فيه آيات وقرآن  
غدا يبرقعها شؤم وخذلان  
ملكته وملوك الأرض خزان  
من أن يضام ويلقى وهو حيران  
فالكفر فى سنة والنصر يقظان  
معبوده دون رب العرش صلبان  
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان<sup>(١)</sup>

جند السماء لهذا الملك أعوان  
متى رأى الناس ما يحكيه فى زمن  
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما  
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده  
كم من فحول ملوك غودروا وهم  
استصرخت بملكشاه طرابلس  
هذا وكم من ملك من بعده نظر الإِس  
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والإِس  
فالآن لى صلاح الدين دعوتهم  
للناصر ادخرت هذى الفتوح وما  
حباها ذو العرش بالنصر العزيز فقد  
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما  
فأين مسلمة عنها وإخوته  
وعد عما سواه فالفرنجة لم  
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد  
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد  
خزنت عند إله العرش نائر ما  
فالله يبقيك للإسلام تحرسه  
وهذه سنة أكرم بها سنة  
يا جامعاً كلمة الإيمان، قاعم من  
إذا طوى الله ديوان العباد فما

فانظر إلى ثورة هذا الشاعر النفسية التى تظهر فرحة لهذا النصر، فهو يهجم على موضوعه منذ أول بيت بأن جند السماء أعوان لهذا الملك الذى تم على يديه الفتح، وأنه

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٤.

لا يشك مطلقاً في ذلك لأن هذا الفتح أكبر برهان يقدمه، وفي البيت الثاني يريد أن يقول إن هذا الفتح معجزة، وأنه فتح أشبه بفتوح الأنبياء، وبعد أن تحدث عن ما آل إليه ملوك الفرنج وأن هؤلاء الملوك الصّيد أصبحوا صيّداً، ثم أخذ يعنى على ملوك المسلمين السابقين الذين ضعفوا أمام الصليبيين ولم يلبوا دعوة المستصرخين، بل خافوا، وصمت آذانهم، وكل ملك منهم تهالك على لذاته، أما الآن فقد انقلب الأمر، ولبي صلاح الدين صرخة المكلمين، حتى غالى هذا الشاعر في حديثه عن هذا الفتح، فذهب إلى أنه لو كان في عهد النبي لأنزلت فيه آيات وقرآن، والظاهر في هذه المقطوعة هذه العاطفة الدينية التي سيطرت على كل مسلم في تلك السنوات في جميع الأقطار الإسلامية وهو ما عبرنا عنه بالشعور بالقومية الإسلامية.

وهكذا كانت حروب صلاح الدين مثارا لشعر الشعراء الذين لم يمدحوا صلاح الدين طلباً في النوال فحسب، إنما مدحوه لهذه الناحية الدينية التي طغت على كل المسلمين وكانت تعبيراً صادقا عن شعورهم بضرورة الوحدة الإسلامية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين يحب الشعر ويحب العلماء، وجمع حوله عددا كبيرا من الشعراء والعلماء كانوا يلازمونه في أكثر الأحيان، ولا ننسى أن صلاح الدين أنشأ عدة مدارس لإعادة مذهب أهل الجماعة والسنة في مصر، فقد عمر مدرسة بجوار الإمام الشافعي وأخرى بجوار مسجد الحسين بالقاهرة، وبنى للشافعية المدرسة التي عرفت بابن زين التجار. كما جعل دار عباس الوزير الفاطمي مدرسة للحنفية، ودار سعيد السعداء خانقاه للصوفية، وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستان وأوقف على ذلك كله أوقافاً جيدة<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا النحو كان صلاح الدين ذا أثر على الناحية العقلية بجانب أثره في الناحية الأدبية، وقد وجد الشعراء في مآثر صلاح الدين مجالاً واسعاً للحديث عنه وعن مآثره. جاء صلاح الدين مصر ودولة الشعر مزدهرة، والشعراء المصريون وإخوانهم الشاميون على درجة من الرقى الأدبي، مما تحدثنا عن شيء منه في كتاب أدب مصر الفاطمية، واستمر تيار هذا الشعر القوي في عهد صلاح الدين، فقد شاهد هذا العصر (عصر صلاح الدين) عدداً من كبار الشعراء أمثال: القاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وابن عرام، وابن رفاعة، وابن ممتاى، وابن الذروي، وابن المنجم وغيرهم. هؤلاء كونوا البلاط الأدبي الفنى الذى

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤.

نجده فى عهد صلاح الدين، وإذن فإن نهضة الشعر التى رأيناها فى أواخر العصر الفاطمى استمرت ولم تنقرض بانقراض الدولة الفاطمية، بل لا أعالى إن قلت إنها ازدادت قوة بفضل شخصية صلاح الدين وبفضل هذه النواحي المتعددة التى عرف بها صلاح الدين، ولعل من الدوافع التى قوت تيار الشعر فى ذلك العصر وجود شخصية القاضى الفاضل على رأس الوزارة المصرية، والقاضى الفاضل من أبرز الشخصيات فى توجيه الشعر إلى هذا اللون الفنى، كما كان له أثره فى جمع الشعراء حول صلاح الدين، فهو الذى قدم العماد الأصفهانى واستكتبه، كما وفد ابن الساعاتى، وعرقلة، والعلم الشاتانى وأبو على الجوينى وغيرهم على مصر، وانضموا إلى زمرة شعرائها، فأصبحت القاهرة حاضرة الشعر العربى فى ذلك العصر، وملجأ للشعراء من جميع الأقطار الإسلامية، وكان الموضوع الرئيسى الذى اشترك فيه هؤلاء الشعراء جميعا هو موضوع الوحدة الإسلامية والشعور بعزة الإسلام ورفع شأنه والدفاع عنه وإذن فقد ظهر فى العصور الوسطى لون من ألوان الفكرة القومية بين المسلمين جميعا مما كان لها خطرهما فى التاريخ الإسلامى، فبفضل هذه الوحدة والشعور القوى بها انهزم الصليبيون وتركوا إماراتهم فى الشام، كما انهزم التتار بعد ذلك.

ولكن بكل أسف لم يستطع خلفاء صلاح الدين أن يحافظوا على هذه السياسة التى وضعها مؤسس دولتهم، بل تفرقوا وتشاحنوا، وعادوا إلى الانقسام مثل ما كان الأمر عليه من قبل، فضعفوا وهانوا، واستطاع الصليبيون أن ينشطوا مرة أخرى بعد أن رأوا الضعف يدب بين ملوك المسلمين بسبب انقسامهم، وتفرق كلمتهم، بحيث اضطر الملك المعظم عيسى صاحب دمشق إلى تخريب بيت المقدس سنة ٦١٦ هجرية. وهنا أترك أبا المحاسن يحدثنا عن هذه المأساة «ووقع فى البلد ضجة عظيمة، وخرج النساء المخدرات، والبنات والشيوخ، وغيرهم إلى الصخرة والأقصى، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، وفعلوا أشياء من هذه الفعال، ثم خرجوا هاربين، وتركوا أموالهم، وأهاليهم، وما شكوا أن الفرنج تصبحهم، وامتلات بهم الطرقات، فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن، ويريطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونهبت الأموال التى كانت لهم بالقدس، وبلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم، والرطل النحاس نصف درهم. وذم الناس المعظم فقال بعض أهل العلم فى ذلك.

فى رجب حلل الحميا  
وقال القاضى مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفى قاضى الطور فى خراب القدس:  
مررت على القدس الشريف مسلما  
ففاضت دموع العين منى صبابة  
وقد رام علج أن يعفى رسومه  
فقلت له شلت يمينك خلها  
فلو كان يفدى بالنفوس فديته  
وأخرب القدس فى المحرم

فالشاعر مجد الدين الحنفى يبكى على تلك الأيام التى انتصر فيها الإسلام والمسلمون، ويظهر أله الدفين لما حل بالقدس، وأنه تمنى لو فدى القدس بنفسه، وليس هذا شعوره فحسب، بل هو شعور كل مسلم. والواقع أن شعور المسلمين جميعا وهو شعور الوحدة الإسلامية بخلاف الحكام، فقد كانوا مختلفين؛ هذا الشعور نجده واضحا فى القصيدة السابقة، ثم نراه واضحا فى هذا الشعور الذى ساد العالم الإسلامى عندما تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثانى، وكيف أن ابن أخيه الملك الناصر صاحب دمشق جمع مجلسا بجامع المدينة، وخطب فى هذا المجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى، ما جعل الناس يضحون بالبكاء والعيول، وفى هذه الحادثة أنشد الشاعر ابن المجاور قصيدته التى منها:

أعينى لا ترقى من العبرات  
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها  
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما  
ويا فم بح بالشحو منك لعله  
على المسجد الأقصى الذى جل قدره  
على منزل الأملاك والوحى والهدى  
على سلم المعراج والصخرة التى  
على القبلة الأولى التى اتجهت لها  
وما زال فيه للنبيين معبد  
صلى فى البكا الأصال بالبكرات  
توقد ما فى القلب من جمرات  
خبت بادكار يبعث الحسرات  
يروح ما ألقى من الكربات  
على موطن الإخبات والصلوات  
على مشهد الأبدال والبدلات  
أنافت بما فى الأرض من صخرات  
صلاة البريا فى اختلاف جهات  
يوالون فى أرجائه السجادات

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٤.

عفى المسجد الأقصى المبارك حوله الـ  
لتبكي على القدس البلاد بأسرها  
لتبكي عليها مكة فهي أختها  
لتبكي على ما حل بالقدس طيبة  
لقد أشمتوا عكا وصورا بهدمها  
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها  
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها  
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره  
أما علمت أبناء أيوب أنهم  
وإن افتتح القدس زهرة ملكهم

رفيع العماد العالى الشرفات  
وتعلن بالأحزان والترحات  
وتشكو الذى لاقت إلى عرفات  
وتشرحه فى أكرم الحجرات  
ويا طالما غادت هما بشمات  
وكل اجتماع مؤذن بشتات  
وقد كان مجدا بانخ الغرفات  
لهم عظم ما والوا من الغزوات  
بمسعاته عدوا من السروات  
وهل ثمر إلا من الزهرات

لعل هذه القصيدة تغنى عن كل تعليق أو حديث عن ما ساد العالم الإسلامى من حزن  
دفين، وما سكبوه من دموع، وكيف عاير الشاعر الأيوبيين بأن فتح القدس كانت سبب  
ثروتهم ومركزهم فى البلاد الإسلامية، أما وقد سلم الملك الكامل القدس مرة أخرى إلى  
الصليبيين فكل ما فعله صلاح الدين وكل ما قامت به أسرة بنى أيوب قد ضاع هباء.  
ثم نرى هذا الشعور أيضا عندما حاول الملك لويس التاسع فتح مصر وما قاله الشاعر  
ابن المطروح فى قصيدته المشهورة التى فيها يقول:

قل للفرنسييس إذا جنّته  
آجرك الله على ما جرى  
أتيت مصر تبتغى ملكها  
فساقك الحين إلى أدهم  
وكل أصحابك أودعتهم  
خمسون ألفا لا ترى منهم  
وفقك الله لأمثالها  
إن كان بابكم بذا راضيا  
وقل لهم إن أضمروا عودة  
دار ابن لقمان على حالها

مقال صدق من قؤول فصيح  
من قتل عباد يسوع المسيح  
تحسب أن الزمريا طبل ريح  
ضاق به عن ناظريك الفسيح  
بحسن تدبيرك بطن الضريح  
إلا قتيلا أو أسيرا أو جريح  
لعل عيسى منكم يستريح  
فرب غش قد أتى من نصيح  
لأخذ ثأر أو لعقد صحيح  
والقيد باق والطواشى صبيح

فبعد انهزام الملك لويس التاسع في مصر شاء أن ينتقم من المسلمين بفتح تونس فقال  
أحد شعرائها:

يا فرنسيس هذه أخت مصر      فتأهب لما إليه تصير  
لك فيها دار ابن لقمان قبرا      وطواشيك منكر ونكير<sup>(١)</sup>

فتعبير الشاعر أن تونس أخت مصر هو تعبير دقيق للوحدة الإسلامية التي ربطت  
الشعوب بغض النظر عن تصرف الأمراء والحكام، فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن يفرق  
الملك أو الرؤساء الشعوب الإسلامية أو العربية، فاتحاد هذه الشعوب حقيقة واقعة منذ  
عهد بعيد بحيث خالطت دماءهم وحلت مع الروح في أجسامهم، فأى محاولة لتمزيق هذه  
الوحدة لون من ألوان العبث الذى يدل على قصر نظر المحاولين، كما يدل على الجهل  
بالحقيقة التاريخية، وعدم فهم نفسية الشعوب العربية والإسلامية.



(١) المقرئى: السلوك ج ١ قسم ثان ص ٣٦٥.